

الفصل التاسع

عصر الأيوبيين

كان عصر الأيوبيين إيداناً بظهور نوع من النفور بين سلاطين مصر من الأيوبيين الذين ينحدرون من أصل كردي وبين البدو العرب الذين اعتادوا على المعاملة المعتبرة والجيدة إبان العصر الفاطمي، ومن ثم واجه السلطان صلاح الدين الأيوبي عدة صعوبات من جراء وجود عربان البدو بأعداد هائلة وبصورة شبيهة مستقلة عن السلطة الحاكمة، وأحسن من البداية أن هذه العناصر المقلقة ما هي إلا وباء ينبغي مكافحته، فاتهمهم بأنهم يعملون مع الكفار ضد الإسلام كما قال ابن واصل في كتابه "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب"، وفي ذلك يقول ابن شداد: إن الفرنج كانوا يستخدمون البدو لاستطلاع تحركات جيش صلاح الدين، كما كانوا يزودونهم بالقمح، فعمل صلاح الدين في مرحلة أولى، على خفض عددهم في الجيش، وأصبح عددهم (١٣٠٠) بدلاً من (٧٠٠٠)، وأحل الأكراد محلهم، وعندما ثار كنز الدولة في أسوان ضد صلاح الدين، وجد هذا الأخير فرصة سانحة للقضاء على نفوذهم في الصعيد، وتم له ذلك في سبتمبر (١١٧٤ م - صفر ٥٧٠ هـ).

وكان من خلف صلاح الدين من السلاطين الأيوبيين قد اتخذ موقفاً أكثر تسامحاً حيال عربان مصر، الذين اضطرتهم ظروف الحياة إلى الاقتراب من الفلاحين المصريين والتحالف معهم في مواجهة السلطات، فقد أظهر عثمان الذي خلف أباه صلاح الدين العزيز، نوعاً من الرأفة حيال القبائل البدوية في الغربية، وأمر وزيره ابن بهرام بالعفو عنهم بعد أن قتلوا بعض الأمراء، وذلك درءاً لحدوث أي اضطرابات جديدة في البلاد، بل واستخدم الملك الكامل (٦١٥ هـ / ٦٣٥ هـ - ١٢١٨ هـ / ١٢٣٨ م) هؤلاء العربان لمحاربة الفرنج الذين كانوا قد استولوا على مدينة دمياط.

وفي عهد السلطان الملك الصالح أيوب (٦٣٧هـ/٦٤٧هـ - ١٢٤٠م/١٢٤٩م) وعندما هاجم ملك فرنسا لويس التاسع دمياط في سنة (٦٤٧هـ - ١٢٤٩م)، حاربه العربان بكل شجاعة، غير أنهم تراجعوا أمام زحف الصليبيين، وعندما علم السلطان بتقهقرهم، اشتاط غيظاً وأمر بشنق رؤسائهم، فقد كان هذا السلطان يحترم العربان ويقدرهم، وكان القرشيون على وجه الخصوص من ذوي الحظوة لدى الأيوبيين، وخاصة الجعافرة الذين كانوا على رأس قبائل البدو في صعيد مصر، وظلوا يتمتعون بهذه الحظوة في عصر المماليك، وإلى أن ثاروا عليهم في عام (٦٥١هـ)، ولكن المماليك تمكنوا من التغلب عليهم وقهرهم في تلك السنة التي شكلت نقطة تحول ملحوظة في تاريخ البدو في مصر، ولنا أن نذكر هنا أن الأيوبيين قد حاولوا الانتساب إلى العرب، سواء إلى بني مروان أو إلى بني هوازن أو إلى الأرز، رغبة منهم في كسب محبة ونقة عربان مصر وقبائلهم.